

الشهيد البطون  
أحمد عصمت



## مقدمة

لقد اتخذت المقاومة الشعبية دور التجمهر والخروج دون نظام ضد الظالم الأجنبي في أواخر العصر العثماني وفي عهد الحملة الفرنسية وتمخضت عن زعامة شعبية عبر عنها (عمر مكرم) وخنقها (محمد علي) ثم قامت من جديد على صفحات الجرائد وفي داخل مجلس شورى النواب ومن ورأئهما الحزب الوطني ، وحين اشتد الخطر غلب عليها الطابع العسكري ، وكانت تتلمس منفذا تتدفق منه فاختلف مظهرها باختلاف التطور الزمني وباختلاف الظروف وإن كان الجوهر واحدا وهو حب المصريين لحريتهم ولوطنهم ، وتناوب عامة الشعب وطلبة المثقفين الأحرار البروز إلى الصف الأمامي بحسب الأحوال .

ثم جاء الاحتلال البريطاني فوقع الشعب جميعاً عامته ومثقفوه تارة تحت وطأة مرارة الهزيمة ، وتارة تحت وطأة اليأس وبليلة الخواطر ، وتارة ثالثة تحت التقزز من الخيانة وضعف الطبيعة البشرية . وحين وقفت مصر على أقدامها مرة أخرى لم تجد أمامها في هذه المرحلة سوى العودة إلى صحافتها الوطنية التي خلقت الأحزاب ؛ وكل له نظراته إلى (الطريقة) التي يمكن أن يتحقق بها نجاح الكفاح الشعبي ثم تخمر الوضع في أعقاب ثورة ١٩١٩ بحيث أن الأحزاب قد انخرقت بالمقاومة الشعبية فكانت ثورة ١٩٥٢ امتداداً طبيعياً لشقيقتيها السابقتين وإن تكن أقرب إلى ثورة سنتي ١٨٨١ - ١٨٨٢ منها إلى ثورة عام ١٩١٩ بحكم تشابه الظروف في الحالتين مع بعض الاختلاف في التفاصيل .

فقد أعلن باديء ذي بدء أن الاحتلال مؤقت ولكنه امتد بالرغم من كل ذلك حتى عام ١٩٥٦ ولم يمض على انتهائه رسمياً سوى بضعة أسابيع حتى حاول

العودة من جديد وهو يحسب أنه سينجح كما نجح في عام ١٨٨٢ مع أن العالم ومصر قد تغيرا كثيرا في هذه الفترة التي وقف الاستعمار فيها كما هو .

وإننا لانسى أن كفاح مصر ضد أعدائها والغزاة كان كفاحا متصلاً لم تلق فيه أبدا سلاحها من يدها، وربما تغير شكل السلاح أو اسمه لكن لم تتغير طبيعة المعركة ولا هدفها ولم تستم مصر خلالها ولم تفن في أحد الفاتحين . وإننا ونحن نقدم لقصة الشهيد البطل (أحمد عصمت) الذي استشهد في يوم الرابع عشر من يناير سنة ١٩٥٢ نرى لزاما علينا أن نرخص لها بذلك الحادث الهام في تاريخ مصر القومي والذي كان مرحلة جديدة من مراحل كفاح الشعب في سبيل تحقيق أهدافه ذلك هو إعلان إلغاء معاهدة عام ١٩٣٦ في يوم الاثنين الثامن من أكتوبر عام ١٩٥١ وقد استقبلت البلاد إلغاء المعاهدة بالغبطة والحفاوة وأبدت استعدادها للبدل والتضحية — شأنها في الأوقات العصيبة — واستمدت الأمة بمختلف هيئاتها وطوائفها للكفاح . وتجاوبت مع الحكومة في مجاهدة الإنجليز في القنال وتجلت في الشعب الروح الوطنية الثائرة التي ظهرت في ثورة ١٩١٩ وقد أخذ المواطنون يمدون لهذا الكفاح عدته من تلقاء نفسه وكان في الحق كفاحاً مجيداً : شعب أعزل من السلاح أمام قوات غاصبة مسلحة بأحدث معدات الفتك والقتال .

وتجلت بطولة الفدائيين في مهاجمة المسكرات والخافر والمنشآت البريطانية في منطقة القنال مما تردد صداه في صحف العالم ، وكان من أقوى الدعايات لمصر ضد الاحتلال البريطاني ، فقد ترتب على إلغاء المعاهدة من ناحية الحكومة إلغاء جميع الإعفاءات المالية التي كانت ممنوحة للسلطات العسكرية البريطانية بمتضى تلك المعاهدة ، أما من ناحية الشعب فقد اعتبر مركز الجنود البريطانيين مركز الناصبين المحتلين لمنطقة القنال ؛ يجب محاربتهم حتى يجلووا عن البلاد ، ومن

هنا بدأ الكفاح في القنال يتخذ طوراً إيجابياً .

أظهر الشعب بروح عالية وتقبل كل بذل وتضحية ولبي أول مالي عدم التعاون مع الاحتلال ، ومقاومته سلبياً وإيجابياً وظهر العمال الذين كانوا يشتغلون في السكك الحديدية ، وفي الموانئ ، وفي المسكرات البريطانية بمظهر وطني رائع وأخذت بريطانيا من ناحيتها تستمد لمواجهة هذا الكفاح؛ فبادرت بإرسال قوات حربية جديدة إلى منطقة القنال .

وكانت المقاطعة التامة من عمال القنال مما كبد البريطانيين خسارة أكثر من مليوني جنيه في أسبوع واحد ، وقد كان هذا الاضراب الجماعي من العمال برهاناً عملياً على أن قاعدة القنال لم تمد بالمنفعة التي كان يظنها الإنجليز . وأن مركزهم فيها سيصبح مخفوقاً بالمخاطر ، بين شعب معاد لهم ، مستعد للتضحية السلبية والإيجابية في سبيل محاربتهم .

وقد قامت المظاهرات الشعبية ابتهاجاً بإلغاء المعاهدة (في الإسماعيلية وبور سعيد) وقد قابلتها القوات البريطانية بإطلاق النار جزافاً واقتحام المساكن واحتلوا جمرك السويس وعملوا على عزل منطقة القنال، وإقامة حكم عسكري بريطاني فيها وأخذت الدوريات الإنجليزية المسلحة بالمدافع الرشاشة تجوب شوارع (بور سعيد والإسماعيلية والسويس) مستفزة الشعور الوطني وفرضت تفتيشاً على جميع المصريين الراغبين في الدخول إلى منطقة القنال أو الخروج منها مهما كانت مكانتهم في شكل بنطوى على الإذلال والتحقير .

ولما اشتد الكفاح ونشطت (كتائب القذائين) كانت القطارات والسيارات تفتش في أبي حماد والتل الكبير حيث أولى نقط الاحتلال .

ولم يتورع الإنجليز عن ارتكاب أقصى الأساليب العدوانية في مقاومة

حركة الكفاح ، وقد نهبوا ما استطاعوا نهبه من مواد التموين التي كانت ترد لسكان مدن القنال .

وبلغ عدد الاحتجاجات المصرية على ما ارتكبه الإنجليز من مخالفات جمركية نيفاً وألف احتجاج ؛ وأخذوا يتسللون إلى داخل مديرية الشرقية فكان لهم معسكر من قبل في ( التل الكبير ) فأنشأوا نقطاً حربية أخرى بجانب أبي حماد وأحاطوا ببلدتي ( القرين والعباسية ) وغيرها وبات الكثير من قرى مديرية الشرقية عرضة لحماتهم التفتيشية والانتقامية ، وتمادى الإنجليز في العسف والتنكيل وحرمان المدن والقرى من أسباب العيش .

#### كتائب الفدائيين .

ولقد تطوع كثير من الشباب في كفاح الإنجليز في القنال وألقوا من بينهم ( كتائب الفدائيين أو كتائب التحرير ) وقد تكونت هذه الكتائب في القاهرة وفي المدن والقرى الواقعة في منطقة القنال أو القرية منها ؛ وكان لهذه الكتائب عمل إيجابي جليل في تنظيم حركة الكفاح وبث روح المقاومة في نفوس المواطنين ، وكانت تدرّب في القاهرة على حرب العصابات وأنشئت مراكز أخرى لتدريبها في بعض عواصم المديرية كالزقازيق ودمهور وفي بعض القرى المجاورة لمنطقة القنال وذعر الإنجليز من جهاد هذه الكتائب وأخذوا يبحثون عن أماكن تدريبها وتسليحها وقاموا بحملات تفتيشية في منازل المدن والقرى الواقعة في منطقة القنال بحثاً عن مواضع الأسلحة .

ومن الكتائب التي كان لها جهاد مشكور وجهود بارزة الكفاح ؛ ككتيبة البطل الشهيد ( أحمد عبد العزيز ) وكتيبة ( خالد بن الوليد ) وكتيبة ( محمد فريد ) وقد تطوع بعض القواد والضباط القدامى وبعض الضباط العاملين لتدريب هذه الكتائب وفي مقدمتهم الفريق ( عزيز المصري ) واللواء ( محمد صالح حرب ) .

كثائب هبت تلبى الدعاة وتطوى القفار وكثائبها  
برمح يرن وعضب يئن ينبه في مصر وسنابها  
هو الثأر أدركه الثائرون فأعلوا بما أثلوا شأنها  
وأنفس أرواح من في القبور فكادت تعاود أبدانها  
أطلت ترفرف فوق الجموع تحيي من الغيب أوطانها

وأخذ المواطنون في القاهرة والأقاليم يتبرعون للكتائب بالأموال لتزويدها  
بالأسلحة وإمدادها بنفقات مهمتها. وقد اشترك شباب الجامعات في تأليف  
الكتائب، ونظموا صفوفهم فيها بإشراف بعض الضباط وبعض الأساتذة، وأقبلوا  
على تنظيم كتائبهم بحماسة وتضحية تدعوان إلى التقدير والإعجاب، وعاشوا  
في الخيام والمسكرات التي أنشئوها في حرم الجامعات للتدريبات العسكرية  
وكل ما يتصل بحرب العصابات وكانوا إذا أتموا التدريب يسافرون جماعات أو  
فرادى إلى منطقة القتال ليسهموا في الجهاد، وعما يذكر هنا للحقيقة والتاريخ  
أن الحكومة آنئذ لم تقدم للفدائيين معاونة جدية فلا هي نظمت قيادتهم، ولا  
رسمت لهم خططاً منسقة بل تركتهم وشأنهم، ولذا تسرب الارتجال إلى  
حركاتهم ورغم كل ذلك فقد كان للفدائيين عمل إيجابي واسع المدى بعيد الأثر  
في قتال الإنجليز، فعلى أيديهم تم الاستيلاء على كثير من أسلحة الجنود الإنجليز  
وقتل عدد كثير منهم ونسف بعض المنشآت في معسكراتهم ومستودعات  
البنزين والخطوط الحديدية فيها، وكذلك بعض القطارات والسيارات وقطع  
المواصلات ومهاجمة قوافل الإنجليز، وإطلاق النار عليهم في طريقهم إلى  
معسكراتهم وفي تحركاتهم الحربية.

#### معارك القتال :

وقد وقعت حوادث دموية في (معركة الاسماعلية) الثانية اشترك فيها الجيش  
الإنجليزي بدباباته ومصفحاته وطائراته، وسقط من الجانبين قتلى وجرحى وقد  
( ٦ م - شهداء الإسلام )

أظهر أهل الإسماعيلية بسالة في رد العدوان ، كما استبسل رجال الشرطة وأسهم هؤلاء وأولئك في التضحية والفداء وأخذت تجلو من الإسماعيلية أفواج الأسر البريطانية التي باغت زهاء ألف أسيرة؛ وكذلك كان الحال في معركة (السويس الأولى) فقد أبدى رجال البوليس والمدنيين بطولة وشجاعة هما مفخرة للروح المصرية العالية، وكان للفدائيين في هذه المعركة بلاء يستأهل الثناء فقد ألفوا من بينهم فرقة مجهزة بالبنادق والمدافع السريعة الطلقات وأصلوا النجذات التي كانت تأتي من المعسكرات البريطانية ناراً حامية واستشهد في هذه المعركة ثمانية وعشرون من المصريين واثنان وعشرون من البريطانيين، ومن شهدائنا الأبطال بعض النساء اللواتي شهدن المعركة مثل السيدة (شمعة عبد الله حسين) والسيدة (خديجة زكي أحمد) وتجدد القتال في السويس في عنف وضاوة وكان القتلى من الجانبين ومن بين شهدائنا سيدة هي السيدة (فريدة وهبة) وقد شيعت مدينة السويس شهداءها في مشهد رهيب، وقد غطت نعوشهم بالعلم المصري مما أعاد إلى الأذهان تشييع جنازات الشهداء في ثورة ١٩١٩ وأخيراً كانت الجريمة الوحشية التي وقعت من الإنجليز على حي بمدينة السويس؛ يسمى (كفر أحمد عبده) وانتهت بتدميره وإبادته من الوجود نسفته القنابل تحت حماية دبابات العدو ومدافعه وطائراته، واكتسحته بالألغام وكانت جنود المظلات تشعل النار ليسهل الهدم وزال حي (كفر أحمد عبده) بهذه الوسيلة الهمجية وأضحى أطلالا فكانت (هذه الموقعة) وصمة عار في جبين الاستعمار البريطاني قوبلت بالاستنكار في أرجاء العالم، وأخذت تروج الصحف البريطانية للتغاضف مع مصر للكف عن الكفاح والجنوح إلى الهدنة والمساومة ولكن بغير جدوى، وعلى الرغم من أن الوزارة كانت قد منعت المظاهرات منذ يوم السادس من ديسمبر سنة ١٩٥١ إلا أن تصرفات الملك الفاسد جعلت المظاهرات العدائية ضده تدوى في فناء الجامعات منذ الخامس والعشرين من ديسمبر وكانت نذيراً بما سينول إليه مصير الملك والملكية

وكانت ظاهرة جديدة لم يسبق لها مثيل وقد دعمت الحركة العدائية للجامعات والشوارع والبيادين لأن ( أنطوني إيدن ) قد أوضح في مناسبات عدة أن حكومة جلالة الملك ستحافظ على مراكز البريطانيين في منطقة القناة، وأصررت القيادة العسكرية للقوات الإنجليزية على موقف العدوان، والتحدى لأصر ولم تراجع مصر أمام هذا التهديد بل استمرت في القتال وحاول الفدائيون اغتيال ( الجنرال إكسهايم ) فانتشرت القوات البريطانية حتى (أبي صوير) للتفتيش في تعسف واستفزاز ثم كانت (معركة السويس) الدامية وقد ساهم الأهالي فيها بنقل الذخائر إلى البوليس المصري والفدائيين تحت وابل رصاص الإنجليز ثم قابلوا العدوان المسلح بالمثل وانضم إلى الأهالي الفدائيون من كتيبة الشهيد (أحمد عبد العزيز) وانتهت المعركة بانسحاب الإنجليز وكان القتل من الجانبين ومن بين شهدائنا طفل صغير هو (صابر حسين حسن) ثم كانت (معركة أبي صوير) بين الإنجليز والفدائيين وكذلك معركة (المحسة) وفيها استشهد (عباس سليمان الأعسر) الطالب بجامعة الإسكندرية ثم قامت الحملات التفتيشية على القرى الواقعة على طريق المعاهدة بحثاً عن الأسلحة التي خبأها الفدائيون وكان التفتيش في حملات عسكرية إرهابية؛ وأخيراً كانت معركة (التل الكبير) بحجة أن هذه البلدة تأوى بعض الفدائيين وقد قاوم البوليس والفدائيون هذا الهجوم الفاشم مقاومة جمعت بين البطولة والمهارة في القتال وأسفرت هذه الموقعة عن قتل عدد من الإنجليز واستشهاد سبعة من الفدائيين منهم الشهداء (أحمد فهمي المنيسى) و (عمر شاهين) و (عبد الحميد حسن) من عزبة أبي سلطان وكانت من الشهداء السيدة (سيدة البنداري حسن) وعاود الإنجليز في اليوم التالي الأحد الثالث عشر من يناير العدوان على (التل الكبير) فصمد لهم المجاهدون مرة أخرى ولكنهم تكاثروا وحاصروا التل الكبير وحمادة وأبو حمد وغيرها من القرى وقتلوا من وجدوهم من النساء والأطفال، وكذلك كان الأمر في اليوم التالي فهدمت منازل هذه القرى من

مدافعهم وكانت هذه المعركة أعنف معركة بين المجاهدين والإنجليز؛ وحسبك أن تعلم أنهم أسروا سبعة من المجاهدين ولم يعاملوهم معاملة الأسرى بل صلبوهم على الأشجار وأطلقوا عليهم الكلاب المفترسة تنهش أجسامهم لملهم على الاعتراف على زملائهم، فلما أبوا أعدموهم رمياً بالرصاص في أحد معسكراتهم وهو عمل هجى يشير إلى منتهى الفظاعة والوحشية؛ وفي هذه الواقعة الشؤمى استشهد الطيار البطل شهيدنا ( أحمد عصمت ) وقد حدث في نفس الوقت اشتباك آخر بين الفدائيين والبريطانيين في (القرين) وقد استشهد فيه الفدائى (مصطفى الرذنى) ونود إلى معركة (النل الكبير) التي استشهد فيها بطلنا وكيف كان استبسال الفدائيين وجنود البوليس عملاً جليلاً استرعى الأنظار، وقد اعترفت صحف لندن في تعليقاتها على هذه المعركة بأن حركة المقاومة الشعبية أخطر مما كان الإنجليز يتصورون وقالت صحيفة (الدبلى ميرور) لا نستطيع بعد اليوم أن نقول عن قوات التحرير المصرية المؤلفة من شباب متحمس أنها إحدى الدعايات المضحكة؛ لقد دخلت المعركة بين مصر وبريطانيا في دور جديد واستمر القتال يوم السبت الماضى يوماً كاملاً وظل الطلبة المتحمسون يحاربون فرق (الكامبيرون والهالايلاندوز) باسماة عجيبة .

هذه هي المعركة التي تقف عندها في تاريخ كفاحنا الشعبى لأن شهيدنا قد سطر فيها بدمه الزكى الطاهر آخر قصته الرائعة وحياته البطولية الخالدة .

وإذا ذكرنا هنا حياته البطولية فإننا نغنى بها مفهوم المصطفى البطولة وأنها ليست تصويراً لأعمال الفروسية والشجاعة الخارقة وتمجيداً للأخلاق المثالية والزايا الاستثنائية التي تفرد بها عدد من الأشخاص اختصتهم الطبيعة بمالم تختص به سواهم من البشر، فبرزوا وجوهاً رائعة عجيبة تثير الدهشة وتبعث على التقديس؛ لأن البطل فرد فائق يتجاوز الناس في صفاته ويسلك في مواجهة الأحداث مسلكاً مثالياً ويأتى من الأعمال ما يعجز عنه سائر البشر ويتنزه

عن كثير مما يميز الناس من نقص إنسانى أو من ضعف بشرى فإن البطل فى عصرنا ليس هو البطل الاستثنائى الذى لا قيمة حقيقية له فى تطوير الإنسانية أو إضافة كسب جديد لها؛ بل هو ذلك الإنسان الذى تكمن بطولته فى أن يكون إنساناً حقاً.. الإنسان الذى يعيش الحياة الطبيعية بكل أبعادها وهو مدعو إلى أن يواجه مواقف تبرز عندها بطولته الحقيقية، وهو الذى يطلع بمهمته ويتحمل مسئوليته فى الحياة مستبعداً كل مثالية فارغة، مواجهاً وضعه بكل معطياته شاعراً بتقله على الأرض، مؤمناً فى الوقت نفسه بأن عليه أن يصارع ويناضل حتى لا يردبه هذا الثقل فى الحطة والضعة؛ ولذا لا نرى بطلاً منزهلاً عن وضعه عن مجتمعه عن شعبه وليس هناك من عمل إلا وله هدفه الإنسانى وله صداه فى موطنه ولن يستطيع هذا البطل أن يكسب حبنا وإعجابنا إلا إذا كان معدنه من معدننا وأنه يمثلنا حقاً ويمسنا صدقاً ويشق أمامنا طريقاً ممكننا للمجد الحقيقى وهو يمثل آمانى المجموع وطلبيتهم فى كفاحهم من أجل المثل العليا وأهدافهم السامية؛ ومن الطبيعى أن ينبثق البطل من أعماق المجموع بعد أن يتمثل بإحساسه المرهف وإدراكه العميق كل أحاسيس المجتمع الذى هو فيه، فالشعوب تخلق أبطالها والمجتمعات تلد قادتها وزعماءها؛ وأخيراً ليست البطولة فى عصرنا نوعاً من السلوك لحسب بل إنها أعمق من ذلك بكثير فهى فكرة وعمل بل قل إنها أكثر من ذلك فكرة نبيلة تقوم على الإيمان بمثل أعلى يفيد الآخرين ويحقق الخير للمجتمع، وعمل دائم جرىء حكيم لتحقيق هذا المثل الأعلى أو هذا الخير والاستعداد للنضحية فى سبيل ذلك، وأن يؤثر البطل مصلحة أمتة ومصلحة البشرية جميعاً على مصالحه الخاصة لأن مصلحته الخاصة أصبحت جزءاً لا يتجزأ من صوالح المجموع فهى لا تتحقق إلا بتحقيقها وبكل هذه المقاييس سنعرض قصة بطلنا الشهيد (أحمد عصمت) الذى اقترن اسمه العالى بهذه الحقبة من تاريخ نضال شعبنا حتى أصبح رمزاً للمقاومة من جهة، ودليلاً على عقلية الاستعمار المجرمة

من جهة أخرى ، نتحدث عنه في زحمة الأحداث التي تعانها أمتنا العربية ليعلم  
أناس تفكروا لعروبتهم بأن في الشجرة أصلاً، وأن في الكنانة سهماً فلن نستورد  
البطولات من الخارج ولن نتلقى الأمثولات من الأجنبي فنحن كما قال المتنبي :

أطرح المجد عن كتفي وأطلبه      وأترك الغيث في غمدي وأنتجع

نتحدث عن الشهيد الذي بذل حياته في سبيل تحرر وطنه وسيادته وسقط  
صريعاً قبل أن يجنى الثمار ولكنه سقط يعد أن تحدد الطريق ووضحت معالمه  
ولسان حاله يقول :

تقضى الرجولة أن نمد جسمنا      جمرًا فقل لرفاقنا أن يعبروا

#### مولده ونشأته :

في تلك البلدة الطيبة في مشارف القاهرة في ( عين شمس أو هليوبوليس )  
في تعبير أجدادنا الفراعنة ؛ حيث تضرب المسلة الشهيرة بروقها في كبد السماء  
تروى آثار مجد الآباء وإلى جانبها بقايا المعابد القديمة وآثار تل الحصن ؛ حيث  
ينتهي البصر بقناة الاسماعيلية أو طريق المعاهدة—ولد ونشأ شهيدنا البطل وفي  
خواتيم القرن الماضي لم يكن في هذه الحلة المباركة إلا منازل قليلة يقيم في أحدها  
( الأستاذ الإمام محمد عبده ) وآخر بجواره منزل ( أحمد بك عصمت ) والد البطل  
الشهيد وقد توثقت عرى المودة بين الأستاذ الإمام وبين جاره ، وكان المهندس الثرى  
( أحمد عصمت ) هو الابن الأوحيد لأبوين ورث عنهما مالا وجاها فأقبل المهندس  
الشاب على الطبيعة أيما إقبال ، كما أحب العلم والعلماء وعاش حياته قسمة بين  
رفقة الشيخ محمد عبده ، ورواد داره وبين زراعته المستحدثة وخدمة خاله الفريق  
( عبد القادر حلمي ) حاكم السودان العظيم وناظر الحربية وقد كان خاله يخلص  
في مودته له حتى زوجه كبرى بناته وجعله وصياً على بنيه بعد وفاته .

وكان الفريق ( عبد القادر حلمي ) مفخرة وادى النيل في آخر القرن الماضي وفي

فاتحة هذا القرن؛ فهو في عقيدة الشعب وفي التاريخ بطل السودان فقد هزم  
ال دراويش والمهدى في كل لقاء حتى كانوا يصلون ويدعون عقب كل صلاة بقولهم:

( يارب يا قادر اكفنا شر عبد القادر ) وإنك لو اجد بدار ( عصمت بك )  
تلك المكتبة التي خلفها في ثلاث قاعات فساح ملئت بالمصاحف المخطوطة  
والمطبوعة والكتب الهندسية أو التاريخية أو الأدبية أو الشرعية بالفرنسية  
والعربية ، بلغت جميعها نحو ألف كتاب ؛ كما تجد في كل غرفة من منزله صور  
فاتح السودان في شتى مواقفه وفي ظلال هذه الذكريات كانت الأسرة تعيش  
وقد بقيت في ضمير الزمان تهيئة البطل الجديد من أبطال هذه الأسرة للجهاد  
وللمستقبل، وقد ورث والد الشهيد هذا الثراء العظيم عن أبيه ( محمد بك عصمت )  
من عمال الخديو إسماعيل وتعالى به في سماء الشرف ( شجرة نسب ) تنهى  
إلى ( قبيلة بني مخزوم ) في جزيرة العرب كما كانت والدة البطل الشهيد تنسب إلى  
( أسرة بياض ) الشهيرة العربية الأصول في الفيوم فجمع بذلك المجد من أطرافه .

ولد الشهيد في الثلاثين من نوفمبر عام ١٩٢٢ بعد ابنة و غلام سبقاه إلى الوجود  
ولم يحل عليه الحول الرابع حتى توفي والده وفارق الحياة بعده أخوه فنشأ ( أحمد )  
الذي سمي باسم أبيه من حدائته يتيماً ولكنه عاش كأبناء الأثرياء غير مقتر عليه  
وإن أحس الصاب من يتمه الحرمانه الحنان .

ولقد التحق بمدرسة الجزويت ( العائلة المقدسة ) فكان في طليعة أقرانه  
يتميز عنهم بطربوشه الذي كان كالعلم المصرى بين الأجانب، وقد أتم دراسته  
فيها بنيل الشهادة الابتدائية وهو في نحو الثانية عشرة من عمره ، وكان يجيد  
الفرنسية ويحفظ أسير أشعارها وأذهبها على الألسن، وقد كان يحس بنزعته الغلابة  
إلى الحرية بالتضييق عليه في دراسته ( بالجزويت ) فانتقل بعد ذلك إلى الجامعة  
الأمريكية حيث التربية الاستقلالية وتنمية الذات وهنا رأينا الفتى النابه في

دراسته الابتدائية ، والذي كان يتألق ذكاء قد أخذ يتعمر جده ولم يبق له من المعبية إلا الفوق في رياضة التنس حتى صار مرموقاً بين لداته .

وكان يطرق أبواب الثامنة عشرة من عمره ومن حقه أن يدير أمواله فتترك دروس الجامعة إلى دروس الحياة وإلى المطالعة في مكتبة أبيه ، فقرأ جل كتبها الهندسية وبعض كتب الطب .

أما كتب التاريخ الإسلامي والفرنسي فقد استوعبها جميعا ، وكان التاريخ المصري موضوعه المفضل وكان بصطحب هذه الكتب في تنقلاته عند الساقية وتمت تكايب العنب وفي كل مكان .

ونلح عليه في هذه الفترة غرائز عارمة تلتبس النجاح في إدارة شؤونه فهو موزع بين زراعاته في مصر أو المديرية وبين قضاياها ، ولكنه مقتدر فإذا تعامل تعامل في تسام لا يساوم ولا يماكس ولا يكفيه أن يترك الناس تعيش بل كان يسعد أن يجعل الناس تعيش معه أو من حسابه، ورغم أنه كان كبيراً في عاطفته تتأصل الساحة في نفسه إلا أنه كان دقيقاً في حسابه .

وحينما استشهد كان مستأجروه أعلى الباكين نشيجا وأعمقهم أسى عليه ولم يكن قد عبر حدود العشرين من عمره حتى أنقن استعمال الأسلحة بكل أصنافها واستغل ذلك في رحلاته التي كان يخرج فيها للصيد مع زملائه .

وقد فكر في الزواج قبل أن يبلغ التاسعة عشرة ، وكان معروفاً بيساره مرموقاً لرجولته واستقامة طباعه وحين صار إليه أمره أعرس إلى حليلة كريمة الأصول من جبرته وعشيرته ، وراح يبني أسرته في فرجة من اليسر وخفض الجناح والإقبال على الحياة ، وقد ولد له في السنوات الأولى من زواجه ولدان وابنة هم ( بهي الدين وأحمد وفاطمة ) فتخير لهم المربيات وكان يكرم مربية أولاده ويجلها ويوجهها .

ولقد وجهته نزعة التقدم إلى أن يتعلم الطيران فدخل مدرسة مصر للطيران كما دخلها معه أو قبله ثلثة من الشبان والأعيان تخلفوا عن الدروس واحداً بعد الآخر؛ لكنه لم يتوقف أو يتخلف يوماً واحداً بل كان يذهب في غير الساعات المخصصة له ليتعلم مع غيره فوق الساعات المخصصة له، مما يسر له البدار في إتمام تعليمه؛ ولم يكد يحرز شهادة الطيران حرف ( ١ ) حتى عينته شركة مصر للطيران بين طياريتها بأجر جنهيات معدودة ، كانت عنده خزان الأرض يقبضها على استحباب ولو كلفه الطيران أكثر من ذلك الأجر، لأنه كسب يده لا ميراث جده ووالده .

وقد تحلى في دراسته لشهادة (ب) في الطيران بما في دمه من ميل إلى الهندسة وقد كرس ساعات فراغه لها وأحال الدور الأول من بيته مدرسة للطيران يحمل إليها الأساتذة والتلاميذ ضيوفاً، ويشتري لهم الكتب من مصر أو الخارج وطاوخته اللغات الثلاث التي يتقنها؛ وكان بنوه يصطافون في الإسكندرية ويبقى هو في القاهرة من أجل دراسته صيفاً بمد صيف؛ وقد قال المتحن لزملائه إنني في حرج إذ أمتح الفتي هذه الشهادة فهو أصغر الطيارين سناً؛ والشهادة تمخول له الرحلة على الخطوط العالمية عبر المحيطات لكن إجابته تجعلني في حل من منحه الشهادة وقد حمل الطيار الصغير الأجنحة المصرية في آفاق الخطوط العالمية، فكان أمل شركته وزملائه ومعقد آمال الرؤساء إذ لم يحدث له حادث واحد في سنوات عشر وكان رؤساؤه يندبونه للرحلات التي تعلن عن مظهر الشركة في الخارج أو تحتاج إلى براعة في الهبوط والصعود .

#### سماته وإخلاقه .

شارف الفتي حدود الخامسة والعشرين فانبعثت ينابيع الرجولة من سكناته وحركاته وقسمات وجهه، وقد كان سمهري القوام عظيم الهامة فيه من سمات القواد ليس بالقصير ولا بالطويل ضامر الجسم في غير نحول، أوفى إلى البياض منه إلى

السمره نافذ النظرات غزير الحاجبين ، كث الشارب يميل وجهه إلى أن يستطيل من تحت جبهة متبديه للناظر وأنف دقيق وفم أنيق ، يعلو رأسه شعر رجل فاحم السواد، أشعر الذراعين والصدر وكانت ابتسامته خصبة مؤمنة تضيء عينيه من ضياء روحه فتضمر وجوه أصدقائه ونفوسهم، وكان يقبدي في سمات الأناقة وحسن الهندام مع أبرز آيات الرجولة كان يظنه الرأى من كبار الرياضيين أو فارساً أضمره ركض الخيل في حلباتها ، يقلب عليه التواضع بل الانطواء وحسبه ألا يبدو عليه مظهر الثراء والجاه، وإذا مشى أبداً بدا مرفوع الصدر والرأس على الهامه نفاذ البصر، وهى مظاهر ثقته بنفسه وكان يبدي رأيه فى أسلوب يسير مقل مقنع ، فى وعاء من الصراحة والمودة وكان يملك لسانه وسمعه وبصره، وكانت له صداقات بالأمراء العرب مكنت أسبابها صلاته وأسفاره، وكان مساحاً فى ضيافته كأنما كان يحسب الجمالة فرضاً عليه فقضى حياته مجاملاً سباقاً إلى الخير يشهد بذلك سبقه فى إتمام مسجدي (عزبة النخل والحلمية) بالقرب من عين شمس وإذا استقصيت بره بعالمه بدالك العجب العجاب .

وما كان يتحدث عن خدمه إلا باسم (المستخدمين) : وعاملهم كستخدمين كل ساعات فراغه مع أولاده الذين يقرؤهم القرآن ويلقنهم دروسهم ويجالس أساتذتهم أو يجلس فى بساتينه أو يزجى بعضها فى السباحة مع الطيارين فى حوض ناديه ، وكان يكثر من دعوة ضيوفه إلى المسرح ليشاطروه استمتاعه فيسهرون ويسمرون ؛ أما أسباب متعته الأخرى فهى قراءته ورحلاته فكانت إلى جوار مكتبة أبيه والمساجلات للرحلات والتجارب مصادر غذائه العقلى ، وكان يؤخذ عليه انصرافه عن مصالحه المادية والمالية إلى هواية الطيران، وقد داعبه محدث ذات يوم بأن أذنه لا يقرعها رنين الذهب فتبسم ضاحكاً من قوله وأجاب ( ليس لى أذن موسيقية ) .

ولقد كان الله معه دائماً لأنه كان دائماً مع الله يذكره حين تتحكم النزعات

أو بضرى الصبا والفراغ والجدّة ، فكان طهره الذى لم يعرف الخمر ولم يقترف  
الميسر رغم ثرائه وعنفوان شبابه .

### كلماته :

١- كان يرى السأمحين من المطارات ينسلون إلى الهرم فيضحك ثم يرقى إلى  
الجد فيقول ( ألم يكفنا أن نعيش في الماضى وعلى مخلفاته ؟ ألم يأن لنا أن يزور  
الزائرون معالم الحضارة الحديثة عندنا لقد أضحت آثار العصور الغابرة إعلانياً  
ضدنا مذ كانت زيارة مصر القديمة وحدها برهان موت مصر المعاصرة ) ويتساءل  
( لماذا لا يزورون الجامعات إلى جوار الجوامع ؟ ولماذا لا نبني لهم معالم على روح  
العصر في مصر الحية النابضة التي لا ينافسها فيها منافس ) .

٢ - وكثيراً ما كان يقول ( إن شمس الحضارة ستشرق من الشرق  
مرة أخرى وكا نجح (غاندى) ونجحت الهند بأسلحة الشرق من هدى النفس  
سينجح (مصدق) وتنتج إيران وعندما نجد مصر يا كصدق سينجح ذلك المصرى  
وتنجح مصر ) .

٣ - وقد دافع عن سياسة الدكتور طه حسين التعليمية بقوله ( إن الذين  
يتمون به بالثورة هم الثأرون على سنة التقدم وأن التوسع في تعليم الشعب هو  
صيحة الحرب على العدو، وصمام الأمن لأمتنا فليت لمصر ثواراً مثله في الاقتصاد  
وفي السياسة والاجتماع فإنما منع ثورة ١٩١٩ أن تحدث كل آثارها قيامها على  
السياسة وحدها دون الاقتصاد والاجتماع والتعليم، والنهضة كالتأثير يجب أن تصعد  
في الأفق بجمعها لا بجناح واحد ) وقد أشار إلى ذلك رئيسنا المفدى جمال  
عبد الناصر في الميثاق في ( باب النكسة ) .

٤ - وكان يشارك تابعيه وعملائه في كل ثمرات ثرائه على أساس فلسفته  
التي عبر عنها بقوله ( إن ذلك هو المصلحة والوزن الصحيح للأمر لا فروسية

فيه ولا وثبات خيال ولا استعلاء ولا سخاء؛ لكنه أساس إنسانى لتوثيق علاقتنا معهم وضمن حقوقنا عندهم بدعم أوضاعهم التى ألفوها فى حياتهم الخاصة و حياة أسرآهم وهم يمرون عن ذلك بفتح بيوتهم، ونحن فى الحق نفيدهم لتستفيد وإياهم على أساس إنسانى).

٥ - وكان يقول ( إن السعادة كالعطر لا يصل إلى حواس الغير إلا إذا عطر اليد التى تفرقه فى الناس ، وهى رقم حسابى عجيب إذا أردت أن تضاعفه قسمه ).

٦ - وكان يرد على شاعر الإمبراطورية ( كبلنج ) فى قوله ( الشرق شرق والغرب غرب ولن يلتقيا ) بقوله ( ويوم نعامل الغرب على استغناء سينشد عندنا صداقة الأنداد والأعدال ).

٧ - وقال عن معركة فلسطين ( إن إنجلترا لا تحفل إلا بالضربات المباشرة ولم تظفر مصر منها بحق مغتصب أو بتسريح زعيم معتقل إلا بالضربات المباشرة ولن تظفر منها بشيء إلا بتلك الوسائل أو فى نفس الظروف ) ثم يقول ( لقد كسبنا حرب فلسطين ولو خسرها فإنها البشير بانهميسار الاستعمار ، لأن بسالة المصريين وبخاصة ضباط الحملة قد أثبتت مقدرة الجندى المصرى الحديث على خوض المارك والوجود بروحه فى نبالة واعتزاز ) ويقول ( إن الإنجليز بعد أن تيقنوا من ميلاد هذه الروح العالية فينا سيدركون أن يومهم قد حل وسيعملون كعادتهم على أن يولونا أدبارهم دون قتال ) هذا نثار من كلمات الشهيد البطل سقناها هنا لأنها تعد بمثابة التقديم للحديث عن وطنيته العارمة .

#### وطنيته .

ولد أحمد عصمت فى الثلاثين من نوفمبر عام ١٩٢٢ فهو من أبناء مصر الحديثة التى رأت النور فى آفاق ثورة سنة ١٩١٩ ورضعت لبن النهضة التى تعهدتها

(مصطفى كامل) ، (محمد فريد) في فاتحة هذا القرن ، ولم تكن السنون تتقدم بطائفة من الشبان في تلك الفترة من التاريخ إلا استفحلت بفضاؤها لهؤلاء الباغين على أمتنا الفاصبين لحريقتنا .

وكانت صراعات الأحزاب وفساد الحكم، للفساد السياسي وسيطرة الإقطاع وفي أخريات هذه الأيام بلغ (أحمد عصمت) مبلغ الرجال وكان الزعماء مذعورين من مناورات بريطانيا بأسطولها في قناة السويس، ولاح غصن الزيتون تحت عنوان إلغاء الامتيازات الأجنبية التي جعلت منذ تصريح الثامن والعشرين من فبراير عام ١٩٢٢ مفتاحاً تفتح به مغاليق الشر على مصر، فوقعوا معاهدة ١٩٣٦ ولم تمض أربعة أعوام عليها حتى كان بطلنا قد بلغ رشده وأضحى أمل أسرته وأمتة شديد النعمة على الفاصبين شديد الرغبة في المزيد من الحرية، وفي عام ١٩٣٩ كنفى حالة حرب من أجل الإنجليز وغزيت مصر من أجلهم مراراً وأصبح الجيش البريطاني تحتل فيا لقة أرض الوطن؛ فكان غمة على البلاد وكنت تسمع الجدل بين الداعين بالنصر لأعداء الإنجليز وبين الفريق الآخر المنتصر لهم وكان شهيدنا ممن يرجح الرأي الثاني لأنه كان يقول (إن جولتنا مع الإنجليز قصيرة والظفر فيها مأمول؛ لأننا جاوزنا معهم أكثر المدى، أما مع الألمان أو الطليان فستكون في بداية شوط جديد مديد) وانطلق الإنجليز يجمعون مصر ويقتطعون أوقاتها ويتجرون في ذخائر الحرب وكانت (عين شمس) مأوى القصاد في هذه التجارة الحرام لما كان يكتنفها من المطارات والمسكرات وفي تخومها ، طرائق القتال وكانت عين شمس مقام (أحمد عصمت) فكان هذا الفساد مشغلة نفسه، وباعث حقه وأصيبت معاهدة ١٩٣٦ إصابة مباشرة وبدأنا معركةنا السياسية مع الإنجليز ولم يتأثر (أحمد عصمت) بمخلافات الأحزاب .

ولما جاء دور فلسطين اشتمله الانبعاث الوطني هذا إلى عامين في خصوصية شخصه أولها : حق الجار والعشير ممن يمتون إلى فلسطين وثانيهما : اقتداره على

ما يرجح لديه من الفضل قليلون كانوا مثله ، علما بشئون السلاح وقدرة على الحصول عليه فجاد الشهيد بجهوده وأهمته هموم فلسطين؛ فإذا لم ترقه الأخبار التي كان يترقبها حتى الصباح ضاق بالحياة وإذا سرته أذاعها في بنيه وهو يلقي عليهم ( دروس ضرب النار ) وهو الذي أبي أن يعلمهم في المدارس الأجنبية وأصر على أن يتعلموا في المدارس المصرية، وكان يكثر الاجتماع بخصائه وأصدقائه في بسائفه يناقشهم في السياسة الدولية والداخلية وصراعات الأحزاب مناقشة من يقرأ الصحف الأجنبية والمصرية ويستمع إلى كل إذاعات العالم، فكان يتضح منه مبلغ مد الوطنية ويتسع مدى التضحية لدى المصري الكبير إذ يهب نفسه لقضية بلده .

وقد كان الشباب المصري الذي يمثله ( أحمد عصمت ) يعرف حق المعرفة أن انتصاره على الاستعمار في فلسطين أو مصر حياة له ، حياة لآماله وأمانيه ، حياة لمقدراته ومقدرات أبنائه وأحفاده وعود لحقوقه المسلوبة وأرضه المغتصبة وأمواله وخيرات الهوبة .

وقد ازداد ( احمد عصمت ) نضجا ، وعلمته الأسفار أن يذيب ذاته في ذات بلاده . والمصري في أسفاره هو مصر ذاتها ، وقد تملك عصمت بعد حرب فلسطين التعصب لكل ما هو مصري وأحس أحاسيس فروع الوطنية المتأصلة في قديم تاريخه، تسيطر عليه تلك الثقافة التي يرث بعضها أسباط الأسر الكبيرة، وكانت تربيتهم وليدة الدم الذي ينحدر في أصلابهم والتاريخ العائلي الذي يلقنونه والمسئولية التي يندبون أنفسهم لها .

وقد انشغل (أحمد) في تلك الفترة بالشئون العامة لأمتة كل الانشغال ، وكان يحرص على ( إبداء آراء إنشائية ) ، وأضافت رحلاته إلى آرائه الوطنية معارف ضافية عن البلاد العربية فكان يعرف من هوام معنا ومن يظنون الظنون بنا وكان يقول في هذه الآونة :

( يجب أن نعول على أنفسنا . لقد أثبت الجندى المصرى جدارته من عهد (محمس) و (رمسيس) و (صلاح الدين) ، ورددنا التتار والصليبيين وحدنا فى الشرق والشمال ، فيجب أن نبني سياستنا الخارجية على أساس مستقل ) وهذا دستور ثورتنا المجيدة وقد كان ( لأحمد عصمت ) نفسه ثأر مع جيش العدو أقدمها حساب جده بطل السودان ، منذ نزعته من يمينه رايات النصر وأعيد إلى مصر . وكان كلما أرجع بصره إلى الصورة المعلقة بداره للبطل للمصرى ( عبد القادر حلى ) دوت فى دمه صيحات الانتقام ، وكان قد كسب خبرة فى الصمت أيام تجميع السلاح للمتطوعين ، وفى تعهد ما تنطوى عليه أضالعه من مقت للانجليز وأضحى مخرج السخط من صدر هذا الرجل الهندسى اليد والنقل إلى يده ويد غيره أعمالا لا أقوالا . وهنا تألف منه ومن بعض أصحابه جماعة ظل نشاطها خافياً وكانت مهمتهم استحضار السلاح من الخارج فى إبان طير انهم ، وأخذ يدعو إلى المقاومة السليبية بمقاطعة المنتجات الإنجليزية ، واستحساس الأفراد والجماعات إلى أداء واجبهم فى كفاح الشعب بعد إلغاء المعاهدة وأخذ يجمع التبرعات لشراء السلاح ، وإن لم يمرض برأجه إلا على شركائه فى التنفيذ . ولقد كان الخبير الثبت فى شئون السلاح وزملاء له يتفرون فى وجوه الوادى ، ثم يجتمعون فى صحراء السويس وفى أرباض عين شمس أو فى جوار الهرم وكان يعلن أنه يبرح مصر فى طيرانه والحق أنه وصحبه يسارعون بسياراتهم فى جهاز المجاهدين .

وفى نوفمبر عام ١٩٥٢ سجل نفسه بين (الفدائيين) وأخذ يدمم بماله حتى رآه أحد إخوانه يدفع مائة جنيهه وفى يوم آخر خمسين جنياً ومضى مع الركب المجاهد يجمع الأسلحة من كل مكان، وكان من حماسته يقوته الحذر حتى نبهه إلى ذلك زميل له من موظفى المطار قبل استشهاده بأسبوع . وكم كان يسعده ما يرى من مواكب الفدائيين من الجامعة وكأنها مواكب أعراسه . ثم يقول ( الجامعة

هى مصر المستقبل ، وما دامت مصر المستقبل قد آثرت الموت على الاستعمار فلن يتاح له أن يدس السم للجيل المقبل ، كما سمم الأجيال التى سبقت ) .  
ثم يقول : ( رب ضارة نافعة فستكسب مصر المعركة بيدها ولن تكسب الاستقلال بمعاهدة تعقدها وإنما تكسب كما تكسب كل الأمم بالأرواح التى تفقدها ) ثم يقول أخيراً ( إن مصر لن تنال الاستقلال إلا على شواطئ القتال ) وحسبنا مراجعة حسابه بعد استشهاده ، لنذكر مدى مشاركته الفعلية والمالية فى حركة الفدائيين ؛ فإنه لم يبق له يوم استشهاده فى المصرف إلا مائتان من الجنيهات صرف منها لنفسه صباح استشهاده عشرة جنيهات ، كما انصرف لأهله خمسون أخرى فى اليوم ذاته ، وكان ذلك فى نهاية موسم الإيراد وإيراده السنوى بضعة آلاف لكنه لم يشأ أن يدع لصفاره مالا ومصر أحق به .

وكم شقت على ( أحمد عصمت ) مخزاة كفر ( أحمد عبده ) وآده الجزع وأخذ يعبر عن جراحات نفسه بكل ما يملك ، وكانت مصادر الأنباء فى السر أو فى الجهر تطالع الناس بهول المعركة فى ( التل الكبير ) كما أسلفنا فى مقدمتنا . وهنا ولد للوطن واحد من هؤلاء الصديقين ، وكان ذلك حينما كانت جنازة شهداء القاهرة تسير فى طرقها وكانت مصر تتأثر لشهادتها فكانت قصة اليوم الأخير للشهيد البطل :

أبى رق الحياة فمات حراً	وأبلغ نفسه عن ذلك عذرا
وأقسم لا يكون حماه نهبا	مباحا أو يموت طوى فبرا
وما يدريك أن طواه يوما	يكون لقومه بعثا ونشراً
فيالك ميتا أحيت شعباً	وشدت له على الأيام ذكرا

اليوم الاخير :

كانت منطقة الأهرام مكاناً يتلقى فيه الفدائيون السلاح وهناك فى يوم الثانى عشر

من يناير غادر ( أحمد عصمت ) بسيارته رهطاً من أصدقائه في مشرق النهار ثم عاد إليهم عند الأصيل ولم ينبئهم بأسباب غيابه ، وعادوا إلى القاهرة وقضى ساعات من الليل قبل عودته إلى بيته حتى إذا دخلها وآتوه بالعشاء طعمه كعادته في يسر وانسراح وحرر لأهله ( الشيك ) بمبلغ خمسين جنيهاً ولم يسلم مفتاح السيارة لعامله لإعدادها حتى لا يظهر على ماتحويه، وأصبح ككل صباح يستمتع باللحظات الهنيئة التي يعيشها ثم غادر داره ولم تبدر منه لأهله ولا لولده وهم يتوجهون إلى المدرسة بإدارة تم عن حزن ؛ ثم انطلق بسيارته إلى القاهرة ليتسلم من مصرفه عشرة جنيهات في التاسعة صباحاً ثم قفل راجعاً إلى المطار في المأظلة يتناول الشاي في أمن واطمئنان ؛ ثم يم طريق (عين شمس) وانحدر إلى قناة السويس فلبليس بعد أن ترك لصره ولصر معه بأجياها المتتابعة وصية : (أخي حسين: إن حبي لوطني هو الذي حجب إلى سفك الدماء، دماء الفاصب المستعمر البغيض ؛ فذهبت إليهم غير منتم إلى هيئة أو جماعة ، ذهبت إليهم بدافع إلهي وإيمان قوى ؛ ذهبت إليهم مسروراً فرحاً وكأني ذاهب إلى رحلة صيد مثل الرحلات التي كنا نقوم بها .

فإن مت فأعلن إلى كل مصري أني شاب متزوج ، ولى ثلاثة أطفال ، ولى أمى وأخواتي ، ومع هذا فقد ضحيت بنفسى ليعيشوا هم أحراراً في بلادهم فالحرية لا تمنح ولكنها تؤخذ بأعز التضحيات . فإلى اللقاء في كلتا الحالتين إن مت أو عدت .

( أخيك أحمد )

تلك كانت آخر الكلمات التي جرى بها قلم ( أحمد عصمت ) ولعلها كانت آخر ما يتردد في وجدانه ، هي الكلمات التي صحبته وبرحت به وعذبتة عندما طوت عجلات السيارة الثرى المصرى إلى حيث المعارك المستقرة في منطقة ( م ٧ — شهداء الإسلام )

( التل الكبير ) سار في طريقه إلى الإسماعيلية وبلغ شاطئء المجرى الذى ألف أن تسير سيارته عليه في الأيام الخالية في أرض خالية من العدو ، فإذا المكان لأول مرة تغزوه قوات إنجليزية حاشدة بعدما فعل الفدائيون الأفاعيل بهم في الصباح الباكر ، وكانت القوات المعادية تنقل قتلاها على القنطرة العائمة التى مدوها منذ ساعات حين وصل ( أحمد عصمت ) ووراءه بضع سيارات منها سيارة ركاب كبيرة ملاءى بالراكبين ، فإذا بالسيارة المصرية ، تتوسط معسكر العدو ، أمام نقطة تفتيش استحدثها العدو في ذات المكان .

مكث ( أحمد عصمت ) في سيارته حتى قدم الجند فقدم لهم جواز قيادة الطائرة وجواز سفره المصرى وكان يرتدى رداء الطيارين وعلى كتفه جناحان ونصف جناح ، وطلب جندى بريطانى تفتيشه ونبش سيارته فرفض أن يفتشه وأصر الجندى ، وأصر هو واستعلى على التسليم بحق التفتيش في أرض الوطن ، وهنا أيقن الجندى أنه يلتقى سيداً فوق مستواه العسكرى ، بل فوق مستواه البريطانى والاستعمارى ، بشخصيته التى بلغت ذروتها وعنفوان عزتها في لحظة ميلاد البطل ، فدعا الجندى القائد فإذا هو قائد منطقة ( التل الكبير ) بتمامها الذى أطلقت عليه الصحف قائد ( مذبح التل الكبير ) قد قدم ومعه ياوره لتجرى المقادير قضاءها فيهما ؛ ها هو ذا القائد كله بين يديه ، وهو رأس الجيش يمدل الآلاف وعشرات الآلاف والضربة فيه تصيب إنجلترا في الصميم وما ( عصمت ) إلا مصر بشائنها وفضائلها وما ( البريجادير ) ، إلا إنجلترا في عنفوان عدوان الاستعمار وتراءت أمام البطل رؤى التاريخ الذى كان من حفاظه ورواته فبدا له أن مصر وإنجلترا تتصاولان فليكن السيد الجدير بفضائل حياته العظيم في محياه ومماته وقد تذكر نشيد الشهيد الذى كان دائماً يرتله ليمثله :

عس الخطب فابتسم      وطنى الهول فافتحم  
رابط الجأش والنهى      ثابت القلب والقدم  
لم ييال الأذى ولم      ينسه طارئ الأم  
نفسه طوع همهمة      وجت دونها المهمم  
تجمع الهائج الخضم      إلى الراسخ الأشم  
وهى من عنصر الفداء      ومن جوهر الكرم  
ومن الحق جذوة      لفتحها حرر الأمم

### استشهاده

وقدم (البريجادير) وياوره وأحد حراسه فحين رمقه البطل ترجل من سيارته وتراجع إلى الورا خطوات معجلات وارتقى بسيارة نقل الركاب فدخلها وقذف حافظه نقوده وأشياء أخرى ، قائلاً لركابها أعطوا ما فى هذه الحافظة لشخص مستحق ، ثم شخص من فوره إلى القائد فى لحظات وتبادلاً كلاماً قصيراً سريعاً لم يسمعه الشهود، وإنما شهدوا الانفعال من قائله وعن للشهيد البطل أن يبارزهم مبارزات (على وحمزة وأبى عبيدة) بين الصفوف إذ يلتقى الجمعان فى الزحوف وليصرخ فتى مصر فى وجه العدو صرخات (عمر بن الخطاب) فى وجه (أبى سفيان) ، لا سواء ، قتلانا فى الجنة وقتلناكم فى النار وليقذف فى وجه بريطانيا بكلمة مصر الأخيرة فلن نسمعها من أحد كما نسمعها من لسان بطل (لقد جربنا سياستنا معكم فكانت تنازعاً وفشلاً، وجربنا سياستكم معنا فكانت قهراً وخذية فلم يبق لنا معكم إلا سياسة واحدة ؛ هى أن ترحلوا وإلا فإنها الحرب من كل طبقات الشعب ، فأما نحن فسنموت لنحى وأما أنتم فإلى عذاب غليظ) .

ثم ناداه بهتاف ترن فيه الجرأة والفداء والتصميم :

إيه ياسارق الشعوب تقدم      ساحة الموت واللقاء تقدم

ههنا ههنا حساب عسير و لقاء مر وشعب نجهم  
وعناق مع المدافع حتى الفجر حتى أراك شلوا محطم  
مالمينيك راغتتا تتحاشانى وفي تفرك الحديث تلعم  
أنت مهما حشدت أسطولك الراعد ملء البحار لا أتهدم

وهنا توابع الفريقان وواتى بطلنا المسدس الذى يحمله فى توفيق وتسد يد  
فبدر ( البريجادير ) برصاصتين فى قلبه ؛ نخر مضرجاً بدمه وثنى باثنتين فى قلب  
ياوره الضابط فصرعه مثله وأطلق فى نفس الوقت اثنتين أخريين على الجندى  
البريطانى فهدهد الثلاثة صرعى يخورون لم تخطيء رصاصة واحدة مستقرها ،  
ولم يكد الثلاثة يقعون لوجوههم ويخلدون إلى الأرض حتى أراد أن يوالى  
ضرباتة لولا أن عاجله الإنجليزى بضربة مدفع فخر سريعاً شهيداً ؛ وهو يناجى  
ربه كما ناجاه موسى عليه السلام ( وعجلت إليك رب لترضى ) وانتصرت روح  
مصر فى التل الكبير .

وهكذا استشهد فى وقت نحن أحوج ما نكون إلى أمثاله من أهل  
الكفاية والبسالة والوطنية ، فكان استشهاده خسارة لا يموضها إلا يقيننا أن  
الحياة دأمة العطاء ، وأن الشعب الذى استنبت هذا الرمح المصرى الأصيل ليقوم  
حارساً يقظاً على الأرض والعرض والتراث — ليقدم الرماح تشرع فى وجوه  
الباغين وليصون الحرية والحياة على هذه الأرض .

وبعد أن انقشع الإنجليز عن المكان حملت عربة الإسعاف جثمان البطل  
وكانها تحمل إلى مصر كلها أعلى قيمها المعنوية مجسدة فى رفاته العالى ، وحمل  
إلى المستشفى الأميرى بالزقازيق وكانت بطاح الشرقية كلها ترى الشهداء بتشيع  
الجنازات وتلاوة القرآن فى السراقات ، وأبت الزقازيق إلا أن تحتفل به عندما  
وصل بهتاف الفدائين ( الله أكبر . . . . الله أكبر . . . . والنصر لمصر ) ،

وبترديد ذكر يانه . ومر جثمانه ببليس في جوف الليل فانث فيه شهاؤها وبلغ  
القاهرة بعد منتصف الليل :

وأقبلوا يحملون ( أحمد ) وضاح الحيا مخرج السربال  
شهد الله أنهم حملوا غياث مستصرخ وليث صيال  
من رأى قبله مغيراً بأحاد على ألف غاشم ختال  
وهو لو حاول الزبال تنحى كبرت نفس ( أحمد ) عن زبال  
شق جفح الظلام يمشى إليهم رابط الجأش مشية الرثبال  
قائلا للحياة غيرى غيرى قائلا للنعم غيرى وال  
ليس ما يشتري بغير الدم حـ بحرية ولا استقلال

واحتشد أبناء الوطن حكاماً وشعباً وجيشاً ؛ ليقيموا الدليل في وجه  
الاستعمار على أن البغى والعدوان لا يزيدان الأمة إلا حقداً على أعدائها  
وتمسكا برسالة شهدائها ، وشيوخ الوعظ يستنهضون الهمم من مثاله العالى  
وأطلقت البلدان على شوارعها اسمه ، وسمت شركة الطيران طيارة لها باسمه ،  
وسمى الآباء مواليدهم باسمه ومنهم من كان في باريس .

وأعلن شباب الجامعة إقامة تمثال للشهيد ، وسمت بلدية القاهرة باسمه أكبر  
الشوارع في منطقة عين شمس ( شارع الشهيد أحمد عصمت ) .

وظلت الصحف كما قدمنا أياماً طوالاً تفيض في ذكر أجماده وتمجيد أخلاده  
وأرخ له في كتاب قيم الأستاذ الكبير عبد الحليم الجندى ( من أجل مصر -  
البطل أحمد عصمت ) .

وقد كان العمدة في المراجع التي استندت إليها في إخراج هذا الكتاب .  
وهكذا لا زلنا نجد ذكره لأنه آمن بفكرة قضى في سبيلها ، فكرة  
خلقت مفهوماً جديداً أطاح بخرافة الأخلاق السياسية القائمة على الخداع

والتضليل لتحل محامها السياسة الأخلاقية الناطقة بالصدق والجاهرة بالحق نذكره  
لنبارك الشعلة التي أوزكى أوارها فما تخبـو ؛ ونعمود بالذكري كل عام  
لنستنشق منها عبير المجد والخلود من ثرى قدسى ، فداه بروحه ورواه بدمه  
نذكره وقد أسفر الصبح الذى أعاره نور عينيه حين انطفت فيه جذوة الحياة  
نذكره ونحن نهتف: لقد أدركنا الغاية ورفعنا راية الوطن العربى رفيعة كالشمس  
منيرة كالطود .

كتلة من لب	في سماء العرب
ولواء من هدى	وشعاع من نبى
يا شهيدا دمه	قال للأرض اشربى
أنت إن لم تـرـتـو	من دم الحر الأبي
ذل فيك العربى	واسـتـبـد الأجنبي

### والخيرا :

وأخيراً سنجمل من ذكرناه فى كل عام محفلاً نـزف إلى شهيدنا البطل  
بشرى تحقيق الأمانى التى مات من أجلها، نـزف إلى الشهيد الحى موت الاستعمار  
الأنكد، نـزف إليه أننا نلطم فى كل يوم أساتذة حقوق الإنسان لطمات تعلمهم  
معنى حقوق الإنسان ، نـزف إليه تفتح أزهار الدوحة التى وهب دمه لها دوحة  
الحرية التى غذاها قبله بدمائهم مئات الشهداء، وذاها بعده بدمائهم وما زال  
يغذيها حتى اليوم مئات وألوف الشهداء، نـزف إليه أننا سنظل نكافح الوحش  
فى الإنسان دفاعاً عن كرامة الإنسان، نـزف إليه أننا الأمانء على العقيدة المقدسة  
التي قضى الشهيد يذود عن حياضها والرسالة الخالدة التى عاش لها ومات فى  
فى سبيلها؛ وتلك هى الأمانة التى أسلمها رفاقه لتكون لهم حمى ويكونوا لها  
سياجاً ويعيشون فى ظلها ويستمتتون فى حفظها وتمجيدها؛ وأنه سيظل فينا  
فكرة تنمو وتقوى وستقوى على الاستعمار وعلى الزمان وقد آتت خيرها

حرية ووحدة وسيادة؛ وأخيراً نرف إليه في نهاية كل عام يمضى على  
استشهاده أن الشعب الذى أحبه وافتقده يحقق في كفاحه الشريف الظفر بعد  
الظفر على الاستعمار—والقومية العربية تمضى انطلاقها الجبارة من نصر إلى نصر  
يقودها رائدها الظافر الرئيس المفدى جمال عبد الناصر؛ وأخيراً نحياه ونمجده  
بنشيدنا .

هذا الدم الثماني الأبى      لروحنا قوت وذكرى  
كنز فضضت ختامه      ففدا سواد الليل فجرا  
وسرى الضياء مزغردا      وقوافل الأحرار تترى  
\* \* \*

كنز نثرت خضيبه      وعلى قناتي قد سكبته  
روبت تربتها فروتك      الملا مجداً حويته  
وتركتنا نحن الظماء      نروم وردا قد وردته  
\* \* \*

أجل أيها الشهيد البطل : أنت روح أمين في رحاب رب كريم فلتنم هادئاً  
مع الصديقين والشهداء؛ فإن الفكرة التي عشت من أجلها تزهر، والدعوة التي  
استشهدت في سبيلها تزدهر؛ والايان بالفكرة والدعوة قد أصبح ديننا للأحرار.